تأسيس الإمبراطوريّة



إعداد: هشام الجبالي



موسوعة تاريخ مصر

مرحبا بأصدقائى فى كل بقعة من أرض مصر.

أسمى **«نيل»** وُجدّت منذ أن شق النهر مجراه فى أرضنا فجلب لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصاحب أجدادكم القدماء فى رحلات البناء الطويلة، وأرافق أباءكم فى مسيرة العمل من أجل رقى مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأأسى لهزائمهم، أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ما هو مصرى فأطوف بأرجاء البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، أبحث عن كل جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضى النهار أحث أبناءها على بذل المزيد من الجهد، وأمسى لأحلم لها بغد أكثر إشراقا ومستقبلا يملأه الرقى والتحضر، أعتدت أن أصاحب الشيخ كثير النشاط والحركة **«تاريخ»** كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له المساعدة ليسجل لها فى أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها، لهذا ستجدونى معكم عبر حكايات **«تاريخ»** وحوادث مصر وأخبارها.



موسوعة تاريخ مصر

المحرر : هشام الجبالى

الرسوم الداخلية : علاء حجازى

تصميم الغلاف : عماد حليم

المراجعة اللغوية : شوقى هيكل

التجهيزات الفنية: جرافيك سنتر

الجمع التصويرى : المكتب العربى للمعارف

الإخراج : المكتب العربى للمعارف

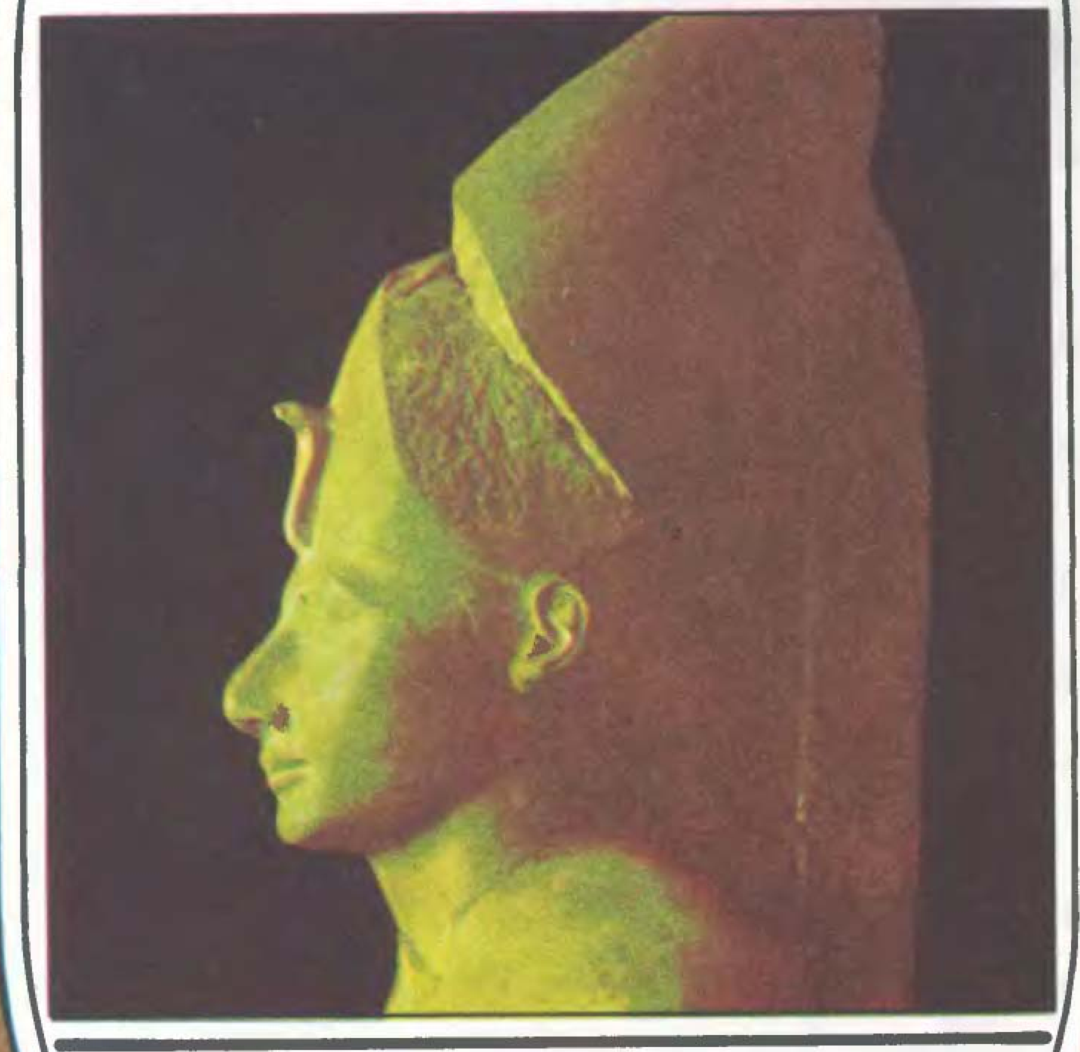
الطبعة الأولى : ١٩٩٤

رقم الإيداع : ٥٤٤١ / ١٩٩٤

الترقيم الدولى: I.S.B.N: 977-276-018-5

موسوعة تاريخ مصر

تأسيس الإمبراطوريّة



إعداد: هشام الجبالي



الحضارةُ شمسٌ لاتغيبُ، قد تحتجبُ يومًا خلفَ السحبِ، لكنها دائما ناشرةٌ بهاءَهَا تنبيءُ عن جهدٍ شاقٍّ لأجيالٍ كتبَتْ على نفسِهَا العملَ الجادَّ المتواصلَ لتقدِّمَ لأبنائِهَا وأحفادِهَا حياةً يملؤُهَا الرقىُّ والتقدُّمُ على أرضٍ وطنٍ قد سما بحسنِ الإدارةِ وروعةِ الابتكارِ، هذا ماتؤكِّدُهُ لى الأيامُ والأحداثُ كلما طالَ بى الترحالُ وكثرَ مايتجمَّعُ لدىَّ من أخبارِ الأممِ وحكايا بنى الإنسانِ، فها هى ذى أرضُ مصرَ التى غزاها الهكسوسُ وراحوا يعملون طَوَالَ أكثرَ من مائةٍ وخمسين عامًا على غرسِ أقدامِهم فى تُرْبَتِهَا الثريةِ الخصبةِ تهبُّ قاذفةً بأبنائِهَا فى ساحةِ القتالِ حتى تستعيدَ حريتَّها واستقلالَ واديها ودلتاها، هذه الأرضُ التى رواها الفراعنةُ بجهودِهم لتثمرَ رقيّاً صعد بها إلى ريادةِ أممِ العالمِ من حولِهَا لم ترتقِ إلى المجدِ يومًا لتكونَ صيدًا سهلاً لهؤلاءِ المحاربين الذين رأَوْا فى ضعفِ جيوشِهَا عند مجيئِهِمْ إليها مايجعلُهم يعتقدون بقدرتِهِمْ على دوامِ إخضاعِهَا والسيطرةِ عليها، هذه الأرضُ التى رفعَتْ راياتِ المدنيةِ فى عهدِ بُنَاةِ أهراماتِهَا وارتدت أثوابَ الثراءِ والرفعةِ فى عهدِها الذهبىِّ لم تكن عاجزةً عن أن تُخْرِجَ من بين أبنائِهَا من يدافعُ عن حضارَتِهَا ويصونُ ثراءَهَا ويحققُ لها الاستقلالَ والحريةَ، فها هو ذا أحمسُ حفيدُ أمراءِ طيبةَ يعودُ بجيوشِ الفراعنةِ منتصرًا تعلو هامَتَهُ أكاليلُ العزةِ والفخارِ بعدما استولى على قلعةِ

شاروهين وشتَّتَ جيوشَ الهكسوسِ التي كانت قد تجمَّعَتْ داخلَها واحتمت بأسوارِها، وبينما رحتُ أراقبُ فرارَ الهكسوسِ مُتَّجِهًا خلفَهم صوبَ الشمالِ، أخذتُ أتتبَّعُ أخبارَ الفرعونِ المنتصرِ الذى أسرعَ بجيشِه إلى حدودِ مصرَ الجنوبيةِ، حيثُ كانت قبائلُ الجنوبِ قد انتهزت فرصةَ انشغالِه بمحاربةِ الهكسوسِ فى آسيا وزحفَتْ شمالاً نحوَ مقاطعاتِ الفراعنةِ فلحقَ بها واشتبكَ مع جنودِها حتى تمكَّنَ من طردِهِمْ بعيدًا عن حدودِ دولتِه، قبلَ أن يسرعَ مرةً أخرى عائدًا إلى بلادِهِ التى عانت طويلاً من تسلُّطِ الهكسوسِ على أرضِها وإهمالِهِمْ لصورِ الحياةِ فيها، بل وهدمِهِم للكثيرِ من إنجازاتِ الفراعنةِ وأبنيتِهِمْ لكى يبدأَ أولَ خطواتِهِ على طريقِ الإصلاحِ والبناءِ كأولِ فراعنةِ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ مستقبِلاً عهدًا جديدًا أراه يحملُ معه الكثيرَ من العملِ والتقدمِ لتستعيدَ مصرُ بجهودِ محرِّرِيها ثراءَهَا وبهاءَهَا القديمَ.

ومن إماراتِ لبنانَ وسوريا التى لجأتْ إليها جيوشُ الهكسوسِ بعدَ

أحد المشاعل الفرعونية

هَزيمتِهِمْ فى مصرَ وطَرْدِهِمْ منها، تابعتُ تجوُّلى مبتعداً عن أرضِ الفراعنةِ فى إحدى رحلاتى الطويلةِ متنقِّلاً بين أقطارِ الأرضِ من وطنٍ إلى آخرَ حتى فصلتنى عن مصرَ عشراتُ الأعوامِ التى مرَّتْ دونَ أن أعلمَ من أخبارِها شيئًا، فكان لابدَّ لى من القيامِ برحلةٍ جديدةٍ إلى أرضِهَا لأرى مافعلَه أحمسُ للنهوضِ ببلادِه بعد خلاصِهَا من سطوةِ الهكسوسِ وماقدَّمَه لها مَنْ خَلَفَهُ على العرشِ من تقدُّمٍ وازدهارٍ طوالَ السنواتِ الماضيةِ، فكانت عودتى إلى أرضِ الفراعنةِ عامَ ١٤٨٥ قبلَ الميلادِ أفتِّشُ فى أرجائِهَا عن ذلك الفَتَى المصرىِّ «نيلٍ» من أقصى شمالِ الدلتا إلى طيبةَ التى وصلتُ إليها صباحَ يومِ عيدِ الوادى، أحدِ أعيادِ المصريين التى لم أستطعْ إلى اليومِ إحصاءَ عَدَدِهَا، فهم بجانبِ أعيادِهم العامةِ التى تحتفلُ بها جميعُ مقاطعاتِ بلادِهِم كاحتفالِهِمْ بالفيضانِ والحصادِ وأولِ أيامِ العامِ وبدايةِ فصولِه، وظهورِ الهلالِ واكتمالِ القمرِ وذكرى ميلادِ الفرعونِ وذكرى تتويجِه، يوجدُ الكثيرُ من الأعيادِ التى تختصُّ بها مقاطعةٌ أو مدينةٌ بعينِهَا، كاحتفالِهِمْ برموزِهِمْ المقدسةِ فى المعابدِ، فنراهم يحتفلون بعيدِ حَتْحُور فى دَنْدَرَةَ، وعيدِ حُورَس فى إدفو، وعيدِ رَعْ فى عَيْنِ شمسٍ، وهكذا لاتمرُّ على هؤلاءِ المصريين بضعةُ أيامٍ حتى يكونوا قد أقاموا الاحتفالاتِ بعيدٍ هنا أو عيدٍ هناك.

وفى طيبةَ عاصمةِ البلادِ الزاخرةِ بالنشاطِ والحركةِ، وعلى الضفةِ الغربيةِ للنهرِ رحتُ أواصلُ التفتيشَ عن «نيلٍ» بين جموعِ المصريين المتدفقةِ إلى مدينةِ الموتى ليقدموا لموتاهم الأدعيةَ والقرابينَ فى عيدِ الوادى حاملين أحدَ تماثيلِ آمُونَ، رمزِ طيبةَ القوىِّ الذى اتَّخَذَهُ فراعنةُ الأسرةِ الحاديةَ عشرةَ بالأمسِ رمزًا مقدَّسًا لدولتِهِم الموحَّدَةِ، وأضافَ فراعنةُ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ إلى مكانَتِهِ اليومَ المزيدَ والمزيدَ من

الأهميةِ حتى جعلُوا منه ملكًا لكلِّ الرموزِ المقدسةِ على أرضِ مصرَ، وبين كلِّ هذه الجموعِ المزدحمةِ على شاطىءِ النهرِ وقعَ بصرى على «نيلٍ»، فأسرعتُ ناحيتَهُ مناديًا حتى تلفَّتَ إلىَّ واقتربَ منى قائلا: مرحبًا بك يا أبتى، جميلٌ منك أن تأتىَ لتشارِكَنَا احتفالَنَا بعيدِ الوادى.

فقلتُ له: أنا لم آتِ إلى هنا لأشارِكَكُم الاحتفالَ بالعيدِ يا «نيلُ»، ولكننى جئتُ باحثًا عنك لتقصَّ علىَّ ما لا أعلَمُهُ من أخبارِ مصرَ.

فقال: لابدَّ من أنك تريدُ معرفةَ الكثيرِ؟

فقلتُ له: أَجَلْ، فلتقصَّ علىَّ جميعَ ماجرى فى بلادِكِم منذُ رحيلِى عنها وإلى اليومِ.

فَصَمَتَ يفكِّرُ قليلاً ثم قال: حسنًا يا



معبد الدير البحرى



أبتى، سأقصُّ عليك كلَّ ماحدَثَ، ولكن بعدَ أن تقومَ بزيارةِ سِنْمُوتْ لأُرِيَكَ أوّلاً ما يُشَيِّدُهُ فى صحراءِ طيبةَ.

فقلتُ له: ومَنْ يكونُ سِنْمُوتْ هذا؟

فقال: إنه أحدُ مهندسى مصرَ فى هذا العصرِ، وواحدُ من كبارِ رجالِ الدولةِ الذين تعتمدُ عليهم الملكةُ حَتْشِبْسُوتْ فى إدارةِ شئونِ البلاد، فهو...

فقاطعتُه متسائلاً: وهل حتشبسوتُ هذه هى التى تجلسُ على عرشِ الفراعنةِ الآنَ يا «نيلُ»؟

فقال: أجَلْ يا أبتى، دَعْنَا نذهبْ الآنَ إلى سنموت، وسأخبرُك بكلِّ شىءٍ بعدَ أن ننتهىَ من زيارتِهِ.

وقبلَ أن أحاولَ إظهارَ اعتراضى على القيامِ بهذه الزيارةِ راح «نيلٌ» سائرًا وهو يقولُ: هَيًّا يا أبتى، فلتسرعْ ولاتُضَيِّعِ المزيدَ من الوقت!

فلم أملكْ فى نهايةِ الأمرِ إلا أن أتْبَعَهُ سائِرَيْنِ فى صحراءِ طيبةَ الغربيةِ إلى حيثُ كان العشراتُ منْ عُمَّالِ مصرَ وفنانيها يعملون بجدٍّ ومهارةٍ فى تشييدِ معبدِ الملكةِ حتشبسوت، وهناك وقفتُ بجانبِ «نيلٍ» نستمعُ إلى سِنْمُوتْ مصممِ البناءِ وهو يشرحُ لنا الهيئةَ التى سيكونُ عليها المعبدُ عند إتمامِ بنائِهِ قائلاً: لقد راعيتُ فى تصميمِ المعبدِ طبيعةَ المنطقةِ الجبليةِ التى سيقامُ بين أحضانِهَا على مستوياتٍ متدرِّجَةٍ يعلو بعضُها بعضًا، فيبدأُ البناءُ بطريقٍ تزيِّنُهُ تماثيلُ الملكةِ على هيئةِ أبى الهولِ على طولِ المسافةِ الفاصلةِ بين شاطىءِ النهرِ والبوابةِ

الضخمةِ التى تؤدِّى إلى مستوَى البناءِ الأولِ وهو فناءٌ مستطيلٌ متَّسعٌ ينتهى فى مؤخِّرَتِهِ بصفوفٍ متجاورةٍ من الأعمدةِ الحجريةِ تظهرُ وكأنها تحملُ مستوَى البناءِ الثانى الذى نصعدُ إليه عبرَ منحدرٍ طويلٍ خفيفِ الانحدارِ، فإذا ماصعدنا إلى ذلك المستوى رأيناه رُوَاقًا مستطيلاً كالأولِ أُلحِقَ به هيكلٌ صغيرٌ يتكوَّنُ من قاعتَيْنِ تحملُ أسقفَهُمَا أعمدةٌ تعلوها رؤوسُ حتحور الجميلةِ، ومن مستوى البناءِ الثانى وعبرَ منحدرٍ جديدٍ نكونُ قد وصلنا إلى الرُّوَاقِ الأعلى الذى تزيِّنُهُ أوزوريسُ المقدسةُ.

وأخذَ سنمُوتْ يُطيلُ فى وصفِ بنائِه والإشادةِ بروعتِهِ وحسنِ تصميمِهِ، حتى راح المللُ يتسلَّلُ إلى نفسى، فاقتربتُ من «نيلٍ» هامسًا: ألا يكفينى كلُّ هذا الشرحِ يا «نيلُ»؟! فهناك الكثيرُ الذى أريدُ أن أعلمَه غيرَ روعةِ معبدِ حتشبسوت وحسنِ تصميمِ سنموت.

ولكننى عبثًا حاولتُ أن أخرجَ هذا الفتى من إنصاتِه الشديدِ واهتمامِهِ وإعجابِهِ البالغَيْنِ بكلِّ مايرويه سنموت، رحتُ أصطحبُ «نيلاً» عائدَيْنِ صوبَ

إحدى آلات التشييد الفرعونية



الشاطئ، وبينما كنا نسيرُ فى طريقِنَا تلفَّتَ إلىَّ قائلاً: حسنًا يا أبتى، ما رأيُكَ فى ذلك المعبدِ الرائعِ الذى صمَّمَهُ سِنْمُوتْ؟

فقلتُ له: ألا ترى أن ذلك الرجلَ قد أخذَ فكرةَ معبَدِهِ هذا عن معبدِ مِنْتُوحُتِبْ الثانى؟

فقال: حقّاً يا أبتى إن فكرةَ البناء المدرَّجِ تكادُ تكون واحدةً فى المعبدَيْنِ، ولكننا مع ذلك لانستطيعُ أن ننكرَ على هذا المهندسِ العبقرىِّ مهارةَ التصميمِ وروعَتَهُ، فهذه المنحدراتُ الطويلةُ بانحدارِهَا البسيطِ ستشعرُكَ وكأن البناءَ قد أُقيمَ على مستوًى واحدٍ، مع أنه كما تعلمُ ينقشُ فى الصخورِ الجبليةِ على ارتفاعاتٍ كبيرةٍ ومختلفةٍ، وهذه القاعاتُ وتلك الأعمدةُ والتماثيلُ المنتشرةُ فى أرجاءِ المعبدِ تشهدُ ببراعةِ التصميمِ وتفوقِّهِ، ثم أن ضخامةَ البناءِ وثراءَهُ يفوقان بكثيرٍ ماكان عليه معبدُ منتحوتب الثانى.

فقلتُ: إن ضخامةَ البناءِ وثراءَه لايعبِّرَانِ عن براعةِ سنموت بقدرِ ما يعبران عن التقدمِ والرخاءِ الذى تعيشُ فيه بلادكم.

فقال: حقا، إن ملوكَ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ قد نهضُوا بالبلادِ فأعادوا لها الكثيرَ من بهائِهَا القديمِ من أحمسَ

محررِ مصرَ وفرعونِهَا القوىِّ وأمنحتب الأولِ صاحبِ الانتصاراتِ العظيمةِ فى الجنوبِ وموجِّهِ جيوشِ الفراعنةِ صوبَ آسيا لتبدأَ سلسلةَ الحروبِ التى حملَ لواءَها من بعده تحتمسُ الأولُ وتحتمسُ الثانى واضعَيْنِ الأساسَ لإمبراطوريةٍ مصريةٍ متراميةِ الأطرافِ، إلى الملكةِ حتشبسوت التى...

فقاطعتُه قائلاً: إنك لم تقصَّ علىَّ إلى الآنَ أىَّ شىءٍ عن هؤلاءِ الفراعنةِ وعن أحوالِ البلادِ فى عهودِهِمْ.

فقال: سأخبرُكَ بكلِّ شىءٍ بالطبعِ، ولكن ليس قبلَ أن نقومَ بتوديعِ الرحلةِ المسافرةِ إلى بلادِ بُنْت.

فقلتُ له غاضبًا: وماذا عن هذه الرحلة أيضًا؟!

فقال: ـعد أن ـدأت الملكةُ ـى إقامةِ ـعبدِهَا فى ـحراء لبيةِ عزمَتْ لى إرسالِ ـملةٍ جاريةٍ إلى ـلادِ بُنْت تحضرَ ـعضَ أشجارٍ ذاتِ الروائحِ العطريةِ كشجرِ المُرِّ الذى نقومُ بحرقِه فى احتفالاتِ المعابدِ بجانبِ الذهبِ والأبنوسِ والعاجِ، وغيرُ ذلك الكثيرُ من منتجاتِ هذه الجهات.

إناء حجرى ملون

فقلتُ له: إن خروجَ مثلِ هذه

المصريةُ الْمُبْحِرَةُ إلى بلادِ بُنْتٍ، وبينما وقفنا نراقبُ البحارةَ المصريين وهم يصفُّون الأنواعَ المختلفةَ من البضائعِ على ظهورِ سفنِهِمْ، نظر إلىَّ «نيلٌ» متسائلاً: كم مرةً تُرَاكَ قد زرتَ تلك البلادَ يا أبتى؟

فقلتُ له: ليس كثيرًا يا «نيلُ»، فأنا لم أذهبْ إلى هذه البلادِ سوى مرةٍ أو مرتَيْنِ على الأكثرِ.

فارتسمت على وجهِهِ علاماتُ التعجُّبِ قائلاً: كيف ذلك؟!

قلتُ له: إن هذه المناطقَ لاتزالُ تحيا حياةَ الشدَّةِ التى كان يحياها أجدادُكُمْ منذُ آلافِ الأعوامِ مما يقلِّلُ من أهميَّتِهَا ويبعدُ بينها وبين التأثيرِ فى سيرِ الحياةِ على الأرضِ بالابتكارِ والتطورِ، ومع ذلك تبقى صعوبةُ الوصولِ إلى أرضِهَا عبرَ الطرقِ البريةِ الوعرةِ وهى أهمُّ الأسبابِ التى تجعلنى أفكرُ كثيرًا قبلَ أن أقرِّرَ التوجُّهَ إليها.

فقال: ها هى ذى الفرصةُ إذَنْ



الرحلاتِ ليس بالشىءِ الجديدِ، فما أكثرَ الرحلاتِ التجاريةَ التى قام بها المصريون إلى بلادِ بُنْتٍ منذُ عهودِ بُنَاةِ أهرامَاتِهِمْ!

فقال: انقطعت رحلاتُ المصريين إلى هذه الجهاتِ البعيدةِ منذُ أن استولى الهكسوسُ على أرضِهِمْ، وهذه الرحلةُ التى أمرت الملكةُ بخروجِهَا هى أولُ رحلاتِنَا بعدَ تحريرِ البلادِ.

ومرةً أخرى لم أستطع الاعتراضَ على مايريدُه ذلك الفتَى، فلم أملكْ إلا أن أتبعَه إلى حيثُ ترسو السفنُ

أمامك، فلو اتجهْتَ إليها عن طريقِ البحرِ الأحمرِ بصحبةِ البحارةِ المصريين، لأمِنْتَ دون شكٍّ كلَّ مخاطرِ السفرِ عبرَ الطرقِ البريةِ.

واستمرَّ «نيلٌ» يرغِّبُنِي في السفرِ برُفْقَةِ رحلةِ الملكةِ ويعدِّدُ لي مزايا الترحالِ بمصاحبةِ بحارةِ مصرَ، فلم أشعرْ إلا وأنا أقفُ على ظهرِ إحدى السفنِ المبحرةِ أُمْسِكُ بمجموعةٍ من أوراقِ البَرْدِى كنتُ قد أعدَدْتُهَا لأسجِّلَ فيها كلَّ ما مرَّ بمصرَ من أحداثٍ منذُ أحمسَ وحتى اليومِ!

وبمهارةٍ أكسبَتْهَا الأيامُ لبحارةِ مصرَ استطعنا الإبحارَ بين أمواجِ البحرِ الأحمرِ وجزرِه وشعابِهِ المرجانيةِ المتناثرةِ بيسرٍ واقتدارٍ، إلى أن رسَتْ بنا السفنُ على شواطىءِ بُنْتٍ، وهى شواطىءُ تحفُّ بها الأشجارُ وتصدحُ فى سمائِهَا الطيورُ، وتتسلَّلُ أشعةُ شمسِهَا الساطعةِ إلى أكواخِ سكَّانِهَا المشيَّدَةِ من أخشابِ الدُّومِ والتى ترتفعُ عن سطحِ الأرضِ اتقاءً



مرآة برونزية

لهجماتِ ماينتشرُ في ربوعِها من حيواناتٍ مفترسةٍ.

نزلتُ إلى الشاطىءِ بصُحْبَةِ قائدِ البعثةِ، يحرسُنَا عددٌ من الجنودِ، بينما راح البحارةُ يصفُّون ما أحضروه معهم من منتجاتِ مصرَ الخشبيةِ الدقيقةِ والحُلِي الذهبيِّ المرصَّعِ بالأحجارِ الكريمةِ والآنيةِ والجِرارِ الحجريةِ بديعةِ التشكيلِ وغيرِ ذلك مما أبدعته حضارةُ الفراعنةِ وصاغَتْهُ أيادى المصريين بكثيرٍ من المهارةِ والإتقانِ.

ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ، فسرعان ماقدمَ إلينا رئيسُ قبائلِ بُنْتٍ مرحبًا ببعثةِ الملكةِ مستبشرًا بما جلبَتْهُ معها من منتجاتٍ مصريةٍ، وبعدما أقام المصريون خيامَهُمْ على شاطىءِ البحرِ الأحمرِ استعدادًا لتحميلِ سفنِهِمْ بالذهبِ والعاجِ والفضةِ وجلودِ الفهودِ والأخشابِ وأنواعِ الحيواناتِ نادرةِ الوجودِ فى بلادِهِمْ كالزرافِ والقِرَدَةِ، أخذتُ أتجوَّلُ فى أرجاء هذه المنطقة التى لم تزل الطبيعةُ البدائيةُ تفرض سيطرتَهَا على صورِ الحياةِ فيها وكأنها تُعيدُنِى إلى الوراءِ مئاتِ الأعوامِ، وعلى الرغمِ من صعوبةِ التجوُّلِ فى هذه المنطقةِ التى تطلُّ من جنباتِهَا الأخطارُ دفعتنى قلةُ زياراتى السابقةِ لأرضِهَا إلى التنقُّلِ فى أرجائِهَا لأكتشفَ كيف يعيشُ بنو الإنسانِ فى هذا الجزءِ من العالمِ.

وهكذا غلبنى حبُّ التجوُّلِ والتفتيشِ فقضيتُ الأيامَ والشهورَ والأعوامَ فى رحلةٍ طويلةٍ من بلادِ بُنْتٍ فى جنوبِ شرقى البحرِ الأحمرِ إلى أقصى جنوبِ غربى القارةِ الأفريقيةِ، ثم الرجوعِ مرةً أخرى إلى بلادِ بُنْتٍ حتى إذا ماعُدْتُ إلى حيثُ كانت ترسو السفنُ المصريةُ كان قد مرَّ على رحيلِهَا عائدةً مايقربُ من خمسةَ عشرَ عامًا.

ولم يَكُنْ علىَّ حينئذٍ إلا أن أسرعَ متَّجِهًا إلى أرضِ الفراعنةِ علَّنِى أفلحُ هذه المرةَ فى معرفةِ شىءٍ من

فما كان منى إلا أننى رحتُ أصرخُ فيه قائلاً: مَنْ يكونُ تحتمسُ الثالثُ؟ وكيف تولَّى الحكمَ بعد الملكةِ حتشبسوت؟ بل وكيف تمكَّنَتْ حتشبسوتُ من الجلوسِ على عرشِ الفراعنة؟

فنظر إلىَّ قائلاً: إنه حديثٌ طويلٌ يا ابنتى، وكما ترى لن أستطيعَ أن أقصَّ عليك شيئًا قبلَ أن أطمئنَّ على جيوشِنَا المتجهةِ إلى آسيا... وصَمَتَ قليلاً ثم راح يواصلُ حديثَه قائلاً: ومع هذا، أعدُكَ بأن أحاولَ أن أقصَّ عليك بعضَ ما لاتعلَمُهُ من أخبارِ مصرَ، ولكنْ بعدَ أن نقومَ بزيارةِ «إنّنى».

فانتفخَ وجهى من شدَّةِ الغضبِ، بينما راح «نيلٌ» ينظرُ إلىَّ نظراتٍ هادئةً تملؤُهَا البراءةُ وعدمُ الاكتراثِ، فأخذتُ أعاودُ الصراخَ قائلاً: ومَنْ يكونُ «إنّنى» هذه المرةَ؟!

فقال: إنه أحدُ أهمِّ رجالِ الدولةِ فى كلِّ عهودِ فراعنةِ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ



أخبارِهَا، فكانت عودتى إليها عام ١٤٦٩ قبلَ الميلادِ، سرتُ فى طرقاتِ عاصمَتِهَا لا أرى إلا مظاهرَ الاستعدادِ للقتالِ ولا أستمعُ من أهلِهَا إلا لحديثِ الحربِ التى سيخوضُهَا تحتمسُ الثالثُ، ذلك الفرعونُ الذى خَلَفَ الملكةَ حَتْشِبْسُوتَ فى الجلوسِ على العرشِ، وبطبيعةِ الحالِ لم أستطعْ إدراكَ شىءٍ مِمَّا يدورُ حولى، حتى تمكَّنْتُ من مقابلةِ «نيلٍ» الذى ما أن رآنى حتى وقفَ أمامى يحدِّثُنى عن القتالِ ويشرحُ لى أسبابَ استعدادِ الفرعونِ لخوضِ الحروبِ فى آسيا،

من أمنحوتب الأولِ إلى تحتمسِ الثالثِ.

فقلتُ له: ولماذا نقومُ بزيارتِه؟

فقال: لقد تقدَّمَ به العمرُ، واعتلَّتْ صحتُهُ كثيراً هذه الأيامَ ولابدَّ لى من أن أقومَ بزيارتِه قبلَ أن أنشغلَ بتلك الحروبِ التى سيقودُها الملكُ تحتمسُ الثالثُ.

ومن جديدٍ لم أجِدْ أمامى مَفَرّاً من الموافقة على مايريدُه «نيلٌ»، فصاحَبْتُهُ إلى شاطىءِ النهرِ حيثُ يوجدُ منزلُ «إنَنِى»، ذلك المنزلُ البديعُ الذى يُنْبِىءُ عن ثراءِ صاحبِه ومكانَتِه الرفيعةِ بين كبارِ موظفى الفراعنةِ، وفى إحدى الحجراتِ وبجوارِ الفراشِ الذى تمدَّدَ عليه «إنَنِى»، جلسنا نتحدثُ إلى هذا الشيخِ الذى لايكادُ يَقْوَى على النطقِ، وما هى إلا دقائقُ معدودةٌ حتى انتهى «نيلٌ» من زيارتِه ونهضَ فودَّعَ الشيخَ المصرىَّ خارجًا بينما آثَرْتُ أنا البقاءَ بجانبِه بعدما وجدتُ فيه من سيخلِّصُنِى من الركضِ خلفَ ذلك الفتى المشاكسِ، وهكذا أخذتُ أبذلُ كلَّ ما أمتلكُ من جهدٍ لتحفيزِ «إنَنِى» على التحدثِ معى شيئًا فشيئًا، حتى إذا ما استطعتُ أخيرًا أن أجعلَه يتحدَّثُ إلىَّ بصوتٍ مسموعٍ، أسرعتُ أبادِرُهُ متسائلاً: تُرَى ماذا حدثَ لمصرَ بعد أن تحقَّقَ لها الاستقلالُ على يدِ محرِّرِهَا الملكِ أحمسَ؟

فأخذ ينظرُ إلىَّ نظراتٍ شاردةً، ثم قال: بعد أن تمكَّنَ أحمسُ فرعونُ مصرَ العظيمُ ومؤسسُ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ من طردِ الهكسوسِ والرعاةِ، واستطاعَ القضاءَ على بوادرِ الاضطرابِ فى الجنوبِ، عاد إلى طيبةَ عاصمةِ مُلْكِه، ليوجِّهَ عنايَتَهُ إلى إصلاحِ ما أفسدته أيدى الهكسوسِ، فظلَّ طوالَ حكْمِه الذى استمرَّ مايقربُ من أربعةٍ وعشرين عامًا فى عملٍ لاينتهى ونشاطٍ لايعرفُ الكَلَلَ.

فقلتُ له: وماذا حدثَ بعدَ رحيلِ أحمسَ؟

قال: خلفَه فى الجلوسِ على عرشِ



تمثال للملكة حتشبسوت على هيئة أبى الهول

الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ الفرعونُ أمنحوتبُ الأولُ، وكان لايزالُ صبياً لايقوى على تحملِ أعباءِ الحكمِ، فأمسكَتْ بَعْدَ أحمسَ نِفِرْتَارِى بزمامِ الأمورِ كوصيةٍ على عرشِ ابنِهَا، وراحت تديرُ شئونَ البلادِ بنفسِ المهارةِ والحزمِ اللذَيْنِ عُرِفَا عنها فى حياةِ زوجِهَا الملكِ أحمسَ، حتى إذا ماشبَّ أمنحوتبُ الأولُ واستطاعَ تصريفَ مهامِّ الحكمِ بمفردِهِ، قاد البلادَ موزِّعًا جهودَه بين الاهتمامِ بأعمالِ الزراعةِ والصناعةِ والفنونِ والاعتناءِ بجيشِ مصرَ وتدريبِهِ تدريباً مستمراً، فلا إصلاحَ ولا اطمئنانَ فى أرضِ الفراعنةِ بدونِ القضاءِ على بقايا الهكسوسِ فى إماراتِ سوريا.

فقلتُ له: وهل قام أمنحوتبُ الأولُ بغزوِ هذه الإماراتِ؟



قال: بدأ الفرعونُ أعمالَه الحربيةَ بإرسالِ جيوشِه إلى الحدودِ الجنوبيةِ والغربيةِ ليقضيَ على ما اشتعلَ فيها من اضطراباتٍ، قبل أن يتوجَّهَ بجيوشِه صوبَ القارةِ الآسيويةِ، فلمَّا تمَّ له ما أرادَ من تأمينِ حدودِ مصرَ في الجنوبِ والغربِ، أسرعَ يقودُ جيوشَ الفراعنةِ عازمًا على غزوِ إماراتِ سوريا، ولكنه سرعانَ ما رحلَ تاركًا قيادةَ البلادِ للفرعونِ تحتمسِ الأولِ بعد حكمٍ دام قرابةَ العشرين عامًا.

فقلتُ له: وهل واصلَ تحتمسُ الأولُ حروبَ مصرَ في آسيا؟

قال: تُوِّجَ تحتمسُ الأولُ ملكًا على مصرَ فتولَّى قيادةَ شعبٍ قد نشأ على حبِّ العملِ والحريةِ، يفخرُ بانتصاراتِه في الجنوبِ حيثُ استطاعَ أن يمدَّ حدودَ بلادِه إلى ملتقَى النيلِ الأبيضِ بالنيلِ الأزرقِ، وهو شعبٌ يرى في خوضِ الحروبِ طريقًا إلى تأمينِ حياةِ أجيالِه القادمةِ وسبيلاً يحفظُ لها حريتَّها ويصونُ حضارةَ أرضِها، وهكذا لم يكُنْ أمامَ تحتمسَ الأولِ مايعوقُه عن مواصلةِ الحروبِ، فكانت أولُ حروبِه هي هذه الحملةُ التي وجَّهَهَا إلى الجنوبِ للقضاءِ على اضطراباتِ القبائلِ السودانيةِ هناك.

فقلتُ له: الجنوبُ مرةً أخرى! ألم يرسلْ أحمسُ وأمنحوتبُ الأولُ حملاتِهم الحربيةَ إلى هذه المنطقة؟

فقال: بلَى، ولكنَّ قبائلَ الجنوبِ أقوامٌ لم تعتدِ الْحَيَاةَ المنظَّمَةَ تحتَ رايةِ حكمٍ واحدٍ، لذلك لايكادُ يمرُّ عهدٌ من عهودِ الفراعنةِ بدونِ أن يعلنوا العصيانَ ويعرضوا حدودَ البلادِ لأخطارِ التنازعِ والفوضَى.

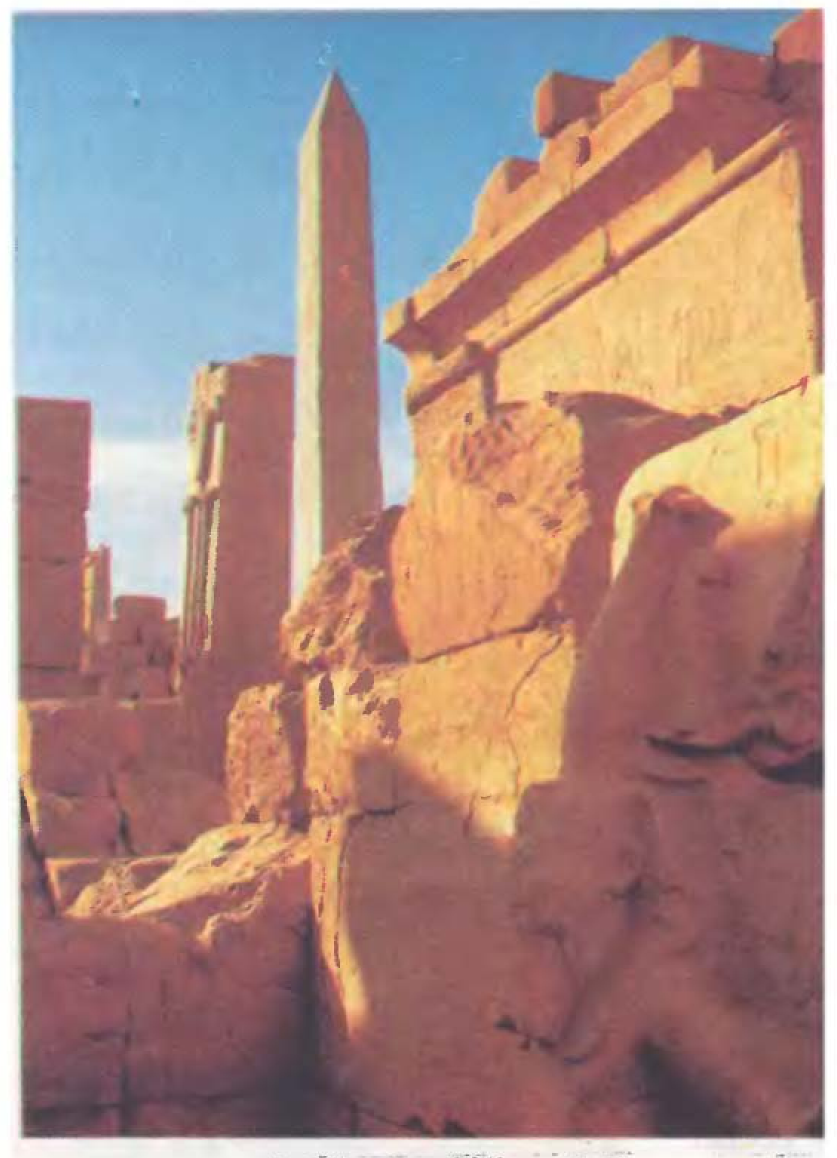
فقلتُ له: وهل أفلحَ تحتمسُ الأولُ

فى القضاءِ على اضطراباتِ هذه القبائلِ؟

قال: أَجَلْ، فقد قَضَى تمامًا على كلِّ مظاهرِ الفوضَى هناك وأنزلَ العقابَ على مَنْ تسبَّبُوا فى حدوثِهَا.

فقلتُ له: حسنًا أيها الشيخُ الطيِّبُ، ولكن ماذا عن حروبِ مصرَ فى آسيا؟

فقال: بعد أن وطَّدَ الفرعونُ أركانَ مُلْكِهِ فى السودانِ، أخذ يعدُّ العدَّةَ لمواصلةِ هذهِ الحروبِ فقد كانت ذاكرةُ المصريين ماتَزَالُ تحملُ الكثيرَ مما عانَتْهُ بلادُهُمْ من تعسُّفِ الرعاةِ الذين تسلَّطُوا عليهم طوالَ مائةٍ وخمسين عامًا، فترى الزرَّاعَ وَسْطَ مزروعاتِهِم، والصنَّاعَ أمامَ مصنوعاتِهِم، والجنودَ فى ساحاتِ التدريبِ يتطلَّعُون إلى ذلك اليومِ الذى يستطيعون فيه القضاءَ على الهكسوسِ وإتمامَ مابدأه أحمسُ ومواصلةَ أمنحوتب الأولِ من بَعْدِهِ، وهكذا كان عزمُ المصريين على إلحاقِ الهزيمةِ بالهكسوسِ فى إماراتِ سوريا نارًا التهمَتْ فى طريقِهَا كلَّ مقاومةٍ أو دفاعٍ حتى تمكَّنُوا من فرضِ سيطرتِهِمْ على أرضِ فلسطين ولبنان



تحتمس الثالث فى الكرنك

وسوريا حتى قَرْقَميشَ (١) حيث أقام تحتمسُ الأولُ لوحةً حجريةً تُخْبِرُ بانتصاراتِهِ وتذكِّرُ كلَّ مَنْ يحاولُ الاعتداءَ على ممتلكاتِ الفراعنةِ فى آسيا ببسالةِ جيوشِهِ وقوةِ بَأْسِهَا.

فقلتُ له: لقد قُدِّرَ لكم إذَنْ أن تُقِيمُوا إمبراطوريةً واسعةً من السودانِ جنوبًا، إلى نهرِ الفراتِ شمالاً، ولكن هل استطعتُمْ إحكامَ السيطرةِ على كلِّ هذه المناطقِ؟

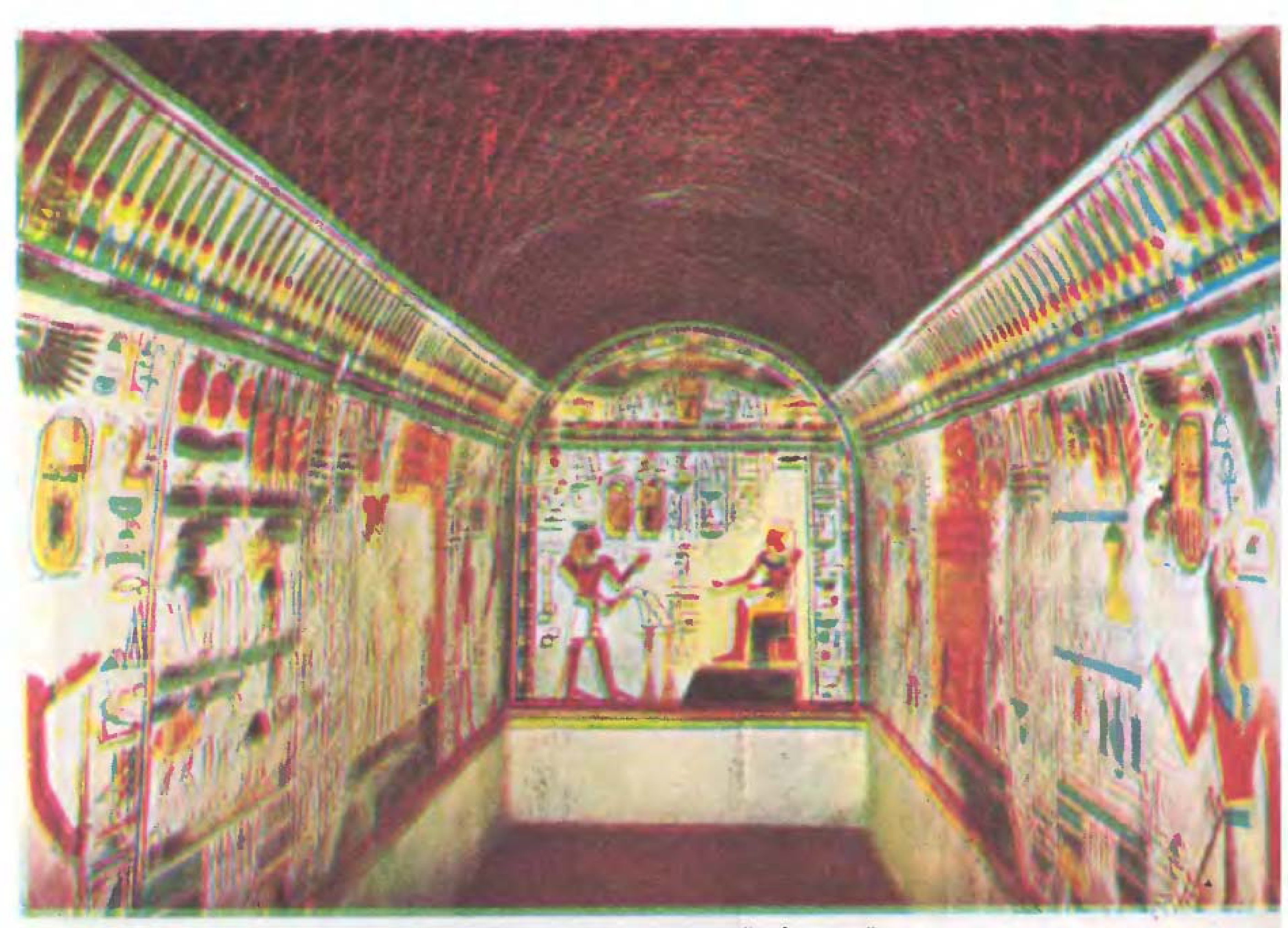
فقال: إن قوةَ جيوشِ مصرَ التى حقَّقَتْ كلَّ هذه الفتوحاتِ قد تركت فى النفوسِ رهبةً جعلت التفكيرَ فى التعرُّضِ لها أو الوقوفِ بوَجْهِهَا أمرًا غيرَ يَسِيرٍ.

فقلتُ له: لقد تمكَّنْتُمْ إذَنْ من السيطرةِ كما سبق وأن فرضوا عليكم سيطرتَهُمْ من قبلُ.

فقال: حَقًّا، ولكنَّ هناك اختلافًا واضحًا، فالهكسوسُ قد جاءوا إلى أرضِنَا باحثِينَ عن حياةٍ أكثرَ رُقِيًّا وتحضُّرًا من حياةِ الشدَّةِ التى كانوا يعيشونها فى أرضِهِم، لذلك لم يخلِّفُوا وراءَهم بعدَ طردِهِم من مصرَ إلا التدميرَ والفوضَى، أما نحن فقد ذَهَبْنَا إلى إماراتِ سوريا لتأمينِ إنجازاتِنَا ونحفظُ لوطنِنَا حياةَ الرقىِّ والاستقرارِ، لذلك ترانا قد حرصنا على التعاملِ مع ما انضمَّ إلينا من بلدانٍ وإماراتٍ على أنها جزءٌ من إمبراطوريتِنَا المصريةِ، مما أدَّى إلى رُقِيِّهَا واستفادَتِهَا من تقدُّمِ مصرَ وتحضُّرِ أساليبِ العيشِ

مدخل إحدى مقابر طيبة

(١) مدينة فى أعالى نهر الفرات شمال شرقى مدينة حلب السورية.



نقوش ملونة بمقبرة تحتمس الثالث

فى أرجائِهَا.

فقلتُ له: حسنًا، لِنُكْمِلْ حديثَنَا عن تحتمسَ الأولِ.

فقال: إن إدارةَ الإمبراطوريةِ وتنظيمَ شئونِهَا كانا هما الشغلَ الشاغلَ للفرعونِ تحتمسَ الأولِ بعدَ أن أتمَّ فتوحاتِهِ فى آسيا، ولما كان الملكُ قد وَرِثَ حبَّ التشييدِ والبناءِ عن آبائِهِ وأجدادِهِ، فقد راح يملأُ وجهَ إمبراطوريَّتِهِ بالأبنيةِ والمنشآتِ التى تشهدُ بثراءِ البلادِ ورفعتِهَا، ولقد خصَّنِى الفرعونُ قبلَ أن يُقِيمَ مسلَّتَيْهِ العظيمتَيْنِ أمامَ منشآتِهِ فى معبدِ الكرنكِ بالإشرافِ على حفرِ مقبرَتِهِ وإخفاءِ موضعِهَا وأسرارِ بنائِهَا.

فقلتُ له: ولماذا يُخْفِى الفرعونُ مَوْضِعَ مَقْبَرَتِهِ؟

فقال: إن العصرَ المرتبكَ الذى سبقَ عهدَ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ بما جرى فيه من سرقاتٍ جماعيةٍ لمقابرِ الفراعنةِ

والأمراءِ وكبارِ رجالِ الدولةِ جعلَ ملوكَ مصرَ يجتهدون فى إخفاءِ مقابرِهم بعيدًا عن أعينِ اللصوصِ، لهذا قام الملكُ أمنحوتب الأولُ بحفرِ مقبرَتِه فى باطنِ الصخورِ بعد أن فصل بينها وبين معبَدِه الجنائزىِّ، وكذلك تخيَّرْتُ أنا موضعًا بصحراءِ طيبةِ وقُمْتُ بحفرِ مقبرةِ الملكِ تحتمسَ الأولِ بين صخورِه ونحتُّ لها بابًا حجريًا خَشِنًا، ليبدوَ وكأنه مجردُ كتلةٍ حجريةٍ وَسْطَ الصخورِ.

فقلتُ له: وماذا حدثَ بعد ذلك؟

فقال: رحلَ تحتمسُ الأولُ بعدُ...

ولم يستطعْ «إنَنِى» قولَ المزيدِ، فقد غابَ عن الوَعْىِ تمامًا متأثرًا بطولِ الحديثِ وتعدُّدِ الأسئلةِ والاستفساراتِ، فما كان منى إلا أننى قد جلستُ بجانبِهِ أترقَّبُ إفاقَتَهُ من تلك الإغماءةِ، حتى إذا ما استطاعَ استردادَ وَعْيِهِ، رحتُ أعاودُ تحفيزَهُ على الحديثِ مرةً من بعدِ أخرى، حتى عاد يستكملُ حديثَه قائلاً: رحلَ تحتمسُ بعدَ حكمٍ تجاوزَ الثلاثين عامًا تاركًا عرشَ البلادِ بين تحتمسَ الثانى، ذلك الشابُّ الضعيفِ قليلِ العزمِ وحتشبسوتَ تلك السيدةِ القويةِ شديدةِ الإرادةِ، ولأن جلوسَ النساءِ على عرشِ الفراعنةِ لم يكن بالأمرِ المتاحِ إلا عندما تَخْلُو ولايةُ العرشِ من الرجالِ تُوِّجَ تحتمسُ الثانى ملكًا على مصرَ بينما ظلَّتْ إرادةُ البلادِ وتوجيهُ أمورِهَا فى يَدِ حتشبسوت.

فقلتُ له: وهل استمرَّ هذا الحالُ كثيرًا؟

قال: لم يَطُلْ العمرُ بتحتمسَ الثانى، فسرعانَ مارحلَ بعدَ خمسةِ أعوامٍ من ولايَتِهِ تاركًا الحكمَ فى يَدِ حتشبسوت والولايةَ لطفلِه تحتمسَ الثالثِ الذى لم يتجاوزْ الحاديةَ عشرةَ من عمرِه، وكما كانت حتشبسوتُ مسيطرةً على مقاليدِ الحكمِ فى حياةِ تحتمسَ الثانى، أصبحَتْ أكثرَ سيطرةً عليها فى حياةِ تحتمسَ الثالثِ وإن كانت لم تستطعْ أن تمنعَ تتويجَه فرعونًا للبلادِ، ولم

يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى رأت حتشبسوتُ أنها أحقُّ بوراثةِ عرشِ أبيها تحتمسَ الأولِ والتتويجِ رسمياً ملكةً على مصرَ، فأخذَتْ تكوِّنُ لنفسِهَا حزبًا قويًا من كبارِ رجالِ الدولةِ استطاعت بمساعدتِهِمْ أن تعلنَ عزلَ تحتمسَ الثالثِ وجلوسَهَا بدلاً منه على عرشِ الفراعنة.

فقلتُ له: وماذا كانت حالةُ البلادِ في عهدِ هذه الملكة؟

قال: لقد كانت الملكةُ تميلُ إلى السلامِ والسَّعْيِ صوبَ العملِ والإصلاحِ، فكان أولُ أعمالِهَا إنشاءَهَا لذلك المعبدِ العظيمِ الذى أشرفَ سِنْمُوتُ على إقامَتِهِ قبلَ أن يبدأَ فى تجديدِ عددٍ كبيرٍ من المعابدِ والمنشآتِ العامةِ فى طولِ البلادِ وعرضِهَا، كذلك امتازَ عهدُ حتشبسوت برحلاتِهَا التجاريةِ إلى بلادِ بُنْتٍ وجزرِ البحرِ المتوسطِ، كما كان اعتناؤُها بتشغيلِ المناجمِ فى شبهِ جزيرةِ سَيْنَاءَ



تمثال حجرى للملك تحتمس الثالث

والمحاجرِ فى أطرافِ الصحراءِ المصريةِ دافعًا قويّاً لرقىِّ الصناعةِ وازدهارِ التجارةِ، لتحيا البلادُ طوالَ واحدٍ وعشرين عامًا جلسَتْ فيها الملكةُ على عرشِ مصرَ، عصراً من أزهى عصورِ الفراعنةِ وأكثرِهَا رقيّاً وتطوراً.

فقلتُ له: وكيف انتهى عهدُ الملكةِ

حتشبسوت؟

فقال: لقد استطاع تحتمسُ الثالثُ أن يستردَّ عرشَه ليقضىَ أيامَه الأولى بعدَ انفرادِه بالحكمِ فى تجهيزِ جيوشِه استعدادًا للتوجُّهِ بها إلى آسيا.

فقلتُ له: أجَلْ أعلمُ ذلك، ولكن لماذا يستعدُّ تحتمسُ الثالثُ للخروجِ بجيشِه إلى آسيا، ألَمْ تتمكَّنُوا من فرضِ سيطرتِكمْ على إماراتِ سوريَّا منذُ عهدِ تحتمسَ الأولِ؟

فقال: لقد رأَتْ هذه الإماراتُ فى الخلافِ الذى دار بين حتشبسوت وتحتمس الثانى وتحتمس الثالث من بعدِه على العرشِ فرصةً قد أُتيحَتْ لها لتعلنَ العصيانَ والانفصالَ عن حكومةِ الفراعنةِ بعدَ أن تجمَّعَتْ تحتَ قيادةِ أميرِ قَادِشَ (١).

فقال: أعلمُ أن أرضَ سوريا لم تشهدْ طوالَ عهودِهَا الماضيةِ تجمُّعًا أو اتحادًا كهذا الذى تحدثنى عنه، فهى عبارةٌ عن جماعاتٍ وإماراتٍ صغيرةٍ يرأسُ كُلَّ واحدةٍ منها أميرٌ لا هدفَ له إلا خوضُ الحروبِ من أجلِ السيطرةِ على ما يجاورُهُ من بلدانٍ وإماراتٍ.

فقال: حقا، ولكنَّ أميرَ قَادِشَ أغنى وأقوى الإماراتِ السوريةِ قد استطاع اليومَ أن يستميلَ إليه عددًا كبيرًا من هذه الإماراتِ لكى يقفُوا معًا فى وَجْهِ أىِّ عملٍ يقومُ به الفراعنةُ لاستردادِ ممتلكاتِهِمْ فى آسيا.

فقلتُ له: حسنًا، دَعْنَا مِنْ كلِّ ذلك الآنَ، ولْتُحَدِّثْنى عَمَّا حَقَّقَتْهُ الصناعاتُ والفنونُ من تطورٍ ورقىٍّ على أرضِ الفراعنةِ طوالَ العهودِ السابقة، من عهدِ الملكِ أحمسَ وحتى عهدِ الملكةِ حتشبسوت.

ولم يستطعْ «إِنَنِى» أن ينطقَ بكلمةٍ واحدةٍ، لأنه كان قد عادَ إلى الاستغراقِ فى الإغماءِ غائبًا عن الوَعْىِ، وبعدما طال بى الجلوسُ بجانبِهِ دونَ أن أرى أملاً فى استكمالِ

(١) بلدة على نهر العاصى شمالى دمشق.

حديثنا، تركتُه مسرعًا إلى صحراءِ مصرَ الشرقيةِ، أحاولُ اللحاقَ بجيوشِ تحتمسَ الثالثِ لأرى ما سيجرى بينها وبين جيوشِ أمراءِ سوريا.

وتحت شمسِ الصحراءِ الحارقةِ ووَسْطَ رمالِهَا القاحلةِ، أخذتُ ألهثُ خلفَ جنودِ الفرعونِ الذين كانوا يقتلون الأرضَ سيرًا من أرضِ مصرَ عبرَ فلسطينَ إلى إماراتِ سوريا، حيثُ لَحِقْتُ بهم وقد توقَّفُوا فى مواجهةِ جيوشِ الأمراءِ، لا يفصلُهُم عنها سوى طريقَيْنِ ممهدَيْنِ تحرسُهُمَا الجنودُ لإعاقةِ أىِّ تقدُّمٍ لجيوشِ الفراعنةِ، وثالثٍ ضَيِّقٍ وَعْرٍ بين الصخورِ والتلالِ، وبعدما تمكَّنَ الفرعونُ من رَصْدِ مواضعِ عَدُوِّهِ ودراسةِ الطرقِ المؤدِّيَةِ إليه، عقدَ مجلسَه الحربىَّ متوجِّهًا إلى قادةِ جيوشِهِ، يطلبُ منهم أن يشيرُوا عليه بأفضلِ الطرقِ التى يمكنُ السيرَ منها، حتى إذا ماراحوا يشيرون عليه بالسيرِ فى أحدِ الطريقَيْنِ المهَّدَيْنِ، نظرَ إليهم قائلاً: إن العدوَّ أمامَنا قد جاء بجنودِهِ وعتَّادِهِ، ينتظرُ أن نَسْعَى إليه من أحدِ هذَيْنِ الطريقَيْنِ، وأرى ألا نسيرَ فى أىٍّ منهما، بل نبادرُهُ بالهجومِ بعد أن نجتازَ هذا المضيقَ الوعرَ.

فقالوا له: ذلك أمرٌ شديدُ الخطورةِ، فلو قَذَفْنَا بجنودِنَا وعتادِنَا وخيولِنَا فى ذلك المضيقِ، لما استطعنا اجتيازَه إلا إذا سار الجوادُ إِثْرَ الجوادِ، والجندىُّ إِثْرَ الجندىِّ، وهو مايعرِّضُنَا لملاقاةِ جُنْدِ العدوِّ وبعضُ جنودِنا محاصرون فى المضيقِ، بينما البعضُ الآخرُ لايزالُ واقفًا هنا عاجزًا عن الاشتراكِ فى القتالِ.

فقال: إن العدوَّ على ثقةٍ تامةٍ من أننا لن نخاطرَ باجتيازِ ذلك المضيقِ، ولهذا أُعْلِنُ عليكم عَزْمِى على قيادةِ جيوشِ مصرَ عبرَ الطريقِ الوعرِ الضيِّقِ فى صباحِ الغدِ، فليستعدُّ الجميعُ لاجتيازِه وملاقاةِ العدوِّ.

وهكذا سار تحتمسُ الثالثُ على رأسِ جيوشِهِ، عابرًا المضيقَ لتنتشرَ

جنودُ الفراعنةِ فى أرجاءِ الوادى الفسيحِ الذى تعسكرُ على طَرَفِهِ الآخرِ جيوشُ أعدائِهم، ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ قبلَ أن ينتهىَ المصريون من تنظيمِ صفوفِهِمْ والاستعدادِ لخوضِ القتالِ، حتى إذا ما بزغ أولُ شعاعٍ لشمسِ اليومِ التالى، تقدَّمُوا صوبَ جيوشِ الأعداءِ الذين أرْبَكَتْهُمْ المفاجأةُ وخَلْخَلَتْ صفوفَهُم، ففرُّوا مذعورين يحتمون بأسوارِ إحدى مُدُنِهِمْ، حيث ضربَ عليهم المصريون الحصارَ، إلى أن استطاعوا إرغامَهُمْ على الاستسلامِ وإلقاءِ السلاحِ، وبعدما حقَّقَ تحتمسُ الثالثُ الانتصارَ على من أعلنوا العصيانَ، راح يعيدُ تنظيمَ أقاليمِهِ فى آسيا، بينما أسرعتُ أنا عائدًا إلى منزلِ «إِنَنِى» لنستكملَ معًا الحديثَ عن حالةِ الصناعاتِ والفنونِ على أرضِ مصرَ.

وفى طيبةَ، وبالقربِ من منزلِ «إِنَنِى» وقعَ بصرى على نيلٍ قادمًا ناحيتى متسائلاً: أين تُرَاكَ قد كنتَ يا



أبتى؟

فقلتُ له: كنتُ أراقبُ القتالَ الذى دار بين جيوشِكم وجيوشِ إماراتِ سوريا بقيادةِ ملكِ قَادِشَ.

فقال: حسنًا، لتقصَّ علىَّ إذَنْ جميعَ ماحَدَثَ.

فقلتُ له: بالطبعِ، سأقصُّ عليك كلَّ ماجرى، ولكن ليس قبلَ أن أنتهىَ من زيارةِ «إِنَنِى».

ولم أنتظرْ أن أستمعَ إلى تعليقِ ذلك الفتى المصرىِّ، فقد تابعت سيرى إلى المنزلِ، وماهى إلا بِضْعُ دقائقَ معدودةٍ حتى خرجتُ منه مسرعًا خلفَ «نيل» بعدما علِمْتُ بوفاةِ ذلك الشيخِ المصرىِّ الطيِّبِ «إِنَنِى».



أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطنى حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وأدون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.

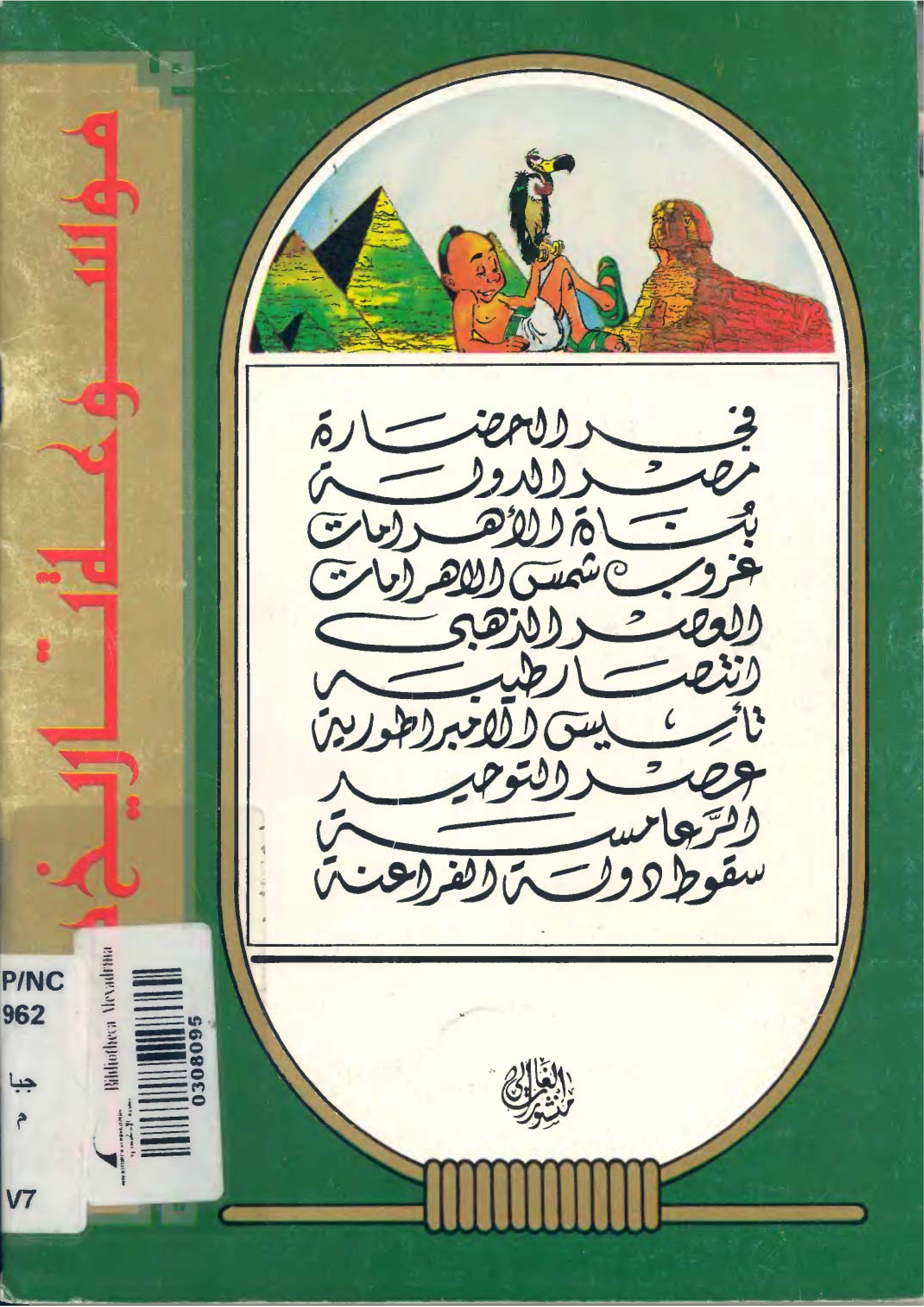


للمكتب العربى المعارف
١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى
ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة
ت: ٢٤٢١٥٢٦



الناشر




فجر الحضارة
مصر الدولة
بناة الأهرامات
غروب شمس الأهرامات
العصر الذهبي
انتصار طيبة
تأسيس الإمبراطورية
عصر التوحيد
الرعامسة
سقوط دولة الفراعنة
P/NC
962
جبا
م
V7
Bibliotheca Alexandrina
0308095